من امراض القلوب

04.06.10

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله.

وبعـــد:

فإن من أمراض القلوب الخطيرة التي لا يسلمك منها أحد – إلا من رحم الله – الرياء؛ وهو ناتج عن خلـــل في القلب، أصله طلب المنزلة في قلوب الناس بإرائهم الخصال المحمودة. والرياء محبط للأعمال، يشارك بل يقارن به صاحبه إبليس عليه لعنة الله، قال الله تعالى: { وَالَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِئَاء النَّاسِ وَلاَ يُؤْمِنُونَ بِـــاللّهِ وَلاَ بِـــالْيَوْمِ الآخِرِ وَمَن يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا فَسَاء قِرِينًا وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ آمَنُواْ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقَهُمُ اللّـــهُ وَكَانَ اللّهُ بِهِم عَلِيمًا} (النساء:38-39) وهو مستوجب بطلان عمل صاحبه كما قد أبطل الله صدقة المنـــان والمرائي فقال: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تُبْطِلُواْ صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالأذَى كَالَّذِي يُنفِقُ مَالَهُ رِئَاء النَّاسِ وَلاَ يُـــؤْمِنُ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لاَّ يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِّمَّا كَسَـــبُواْ وَاللّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ} (البقرة:264)

والرياء صفة من صفات المنافقين وخلة من خلالهم وبئس الخلال، قال جلا وعز: {إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَـــادِعُونَ اللّـــهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُواْ إِلَى الصَّلاَةِ قَامُواْ كُسَالَى يُرَآؤُونَ النَّاسَ وَلاَ يَذْكُرُونَ اللّهَ إِلاَّ قَلِيلاً} (النساء:142).

وقد ذم النبي صلى الله عليه وسلم، الرياء, وشنع على فاعله في أحاديث كثيرة, منها ما جاء عن ابـــن عبـــاس - رضي الله عنهما - قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " من سمع سمع الله به، ومن يرائي يرائي الله به" رواه البخاري ومسلم .

وعن محمود بن لبيد رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " إن أخوف ما أخـــاف عليكـــم الشرك الأصغر" قالوا: يا رسول الله وما الشرك الأصغر؟ قال: " الرياء، إن الله - تبارك وتعـــالى - يقـــول يـــوم يجـــازي العباد بأعمالهـــم: اذهبوا إلى الذين كنتم تراءون بأعمالكم في الدنيا، فانظروا هل تجدون عندهم جزاءً" رواه أحمد .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "إن أول الناس يقضـــي يـــوم القيامة عليه، رجل استشهد فياتي به فعرفه نعمه فعرفها، قال: فما علمت فيهـــا؟ قـــال: قـــاتلت فيـــك حـــتى استشهدت، قال: كذبت، ولكنك قاتلت ليقال جريء، فقد قيل، ثم أمر به فحسب على وجهه حـــتى ألقـــي في النار ، ورجل تعلم العلم وعلمه، وقرأ القرآن ، فآتي به، فعرفه نعمـــه فعرفها، قال: فما علمـــت فيهـــا؟ قـــال: تعلمت العلم وعلمته وقرأت فيك القرآن، قال: كذبت، ولكنك تعلمت العلم، ليقال: عالم، وقـــرأت القـــرآن ليقال هو قارئ، فقد قيل، ثم أمر به فسحب على وجـــهه حتى ألقي في النار، ورجل وسع الله عليه وأعطاه مـــن أصناف المال كله، فأتى به فعرفه نعمه فعرفها، قال: فما عملت فيها؟ قال: ما تركت في سبيل تحب أن ينفق فيها

إلا أنفقت فيها لك، قال: كذبت، ولكن فعلت ليقال هو جواد، فقد قيل، ثم أمر به فسحب على وجهه، ثم ألقي في النار" رواه مسلم

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم قال الله - تعالى-: " أنا أغنى الشركاء عن الشرك، من عمل عملاً أشرك فيه معي غيري تركته وشركه" رواه مسلم

ومن آثار السلف الصالح ، ما قاله علي رضي الله عنه: للمرائي ثلاث علامات، يكسل إذا كان وحده، وينشط إذا كان في الناس، ويزيد في العمل إذا أثني عليه، وينقص إذا ذم.

وعن مجاهد رحمه الله قال في قوله تعالى: {وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُوْلَئِكَ هُوَ يَبُورُ} ("فاطر: 10) قال: هم المراؤون

وعن مطرف بن عبد الله الشخيّر رضي الله عنه قال: "لأن أبيت نائماً وأصبح نادماً أحب إلي من أن أبيت قائماً وأصبح معجباً"

وعن الأوزاعي قال حدثني عبدة بن أبي لبابة قال: إن أقرب التواضع الرضا بالمجلس دون شرف المجلس والابتداء بالسلام وأن يكره الرياء في عمله كله والمدح"

وعن محمد بن عبيد قال سمعت سفيان يقول: "يا معشر القراء ارفعوا رؤوسكم لا تزيدوا الخشوع على ما في القلب فقد وضح الطريق فاتقوا الله وأجملوا في الطلب ولا تكونوا عيالاً على المسلمين"

وقال الفضيل بن عياض رحمه الله: كانوا يراءون بما يعملون؛ وصاروا اليوم يراءون بما لا يعملون.

ويقال: إن المرائي ينادى يوم القيامة بأربعة أسماء: يا مرائي، يا غادر، يا خاسر، يا فاجر، اذهب فخذ أجرك ممن عملت له، فلا أجر لك عندنا.

أيها المسلمون: تلكم هي بعض الآيات والأحاديث والآثار في ذم الرياء، وإليكم ذكر بعض الأمور التي يكون بها الرياء بحسب ما يرائي به؛ من أمور الدنيا والآخرة:

أولاً: الرياء في الدين بالبدن، وذلك بإظهار النحول والصغار؛ ليوهم بذلك شدة الاجتهاد، أو عظم الحزن على أمر الدين، وغلبة حقوق الآخرة.

أما رياء أهل الدنيا فيكون بإظهار السمن، وصفاء اللون، واعتدال القامة، وحسن الوجه، ونظافة البدن، وقوة الأعضاء.

ثانياً: الرياء بالهيئة والزي، وذلك بتشعيث شعر الرأس، وغلظ الثياب، وتقصير الأكمام، وترك تنظيف الثوب، وتركه مخرقاً، كل ذلك لإظهار أنه من أهل الزهد والتقلل من الدنيا.

أما مراءاة أهل الدنيا فبالثياب النفيسة، والمراكب الرفيعة، وأنواع التوسع، والتجمل في الملبس والمسكن.

الثالث: الرياء بالقول؛ وذلك بإظهار وحفظ الأخبـــار والآثـــار؛ ورواية الأشعار، وإظهـــار غزارة العلم، ومن ذلك تحريك الشفتين بالذكر محضر الناس، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أمامهم. أو التفاصح بالعبـــارات، وحفظ الغريب من النحو واللغة؛ للإغراب على أهل الفضل.

الرابع: الرياء بالعمل؛ وذلك كمراءاة المصلي بطول القيام والركوع والسجـــود ونحو ذلك.

أما أهل الدنيا فمراءاتهـــم بالتبختر والاختيال وغيرهما.

الخامس: المراءاة بالأصحاب والزائرين؛ كأن يطلب المرائي من عالم أن يزوره ليقال: إن فلاناً قد زاره فلاناً، ومن ذلك المكاثرة بالشيوخ لا لطلب العلم، وإنما لذكر كثرة شيوخه فحسب.

فـــهـــــذه الخمســـة هي مجـــامع ما يرائي به المراءون، وكلهـــم يطلبون بذلك الجـــاه والمنزلة في قلوب العباد

أيها الفضلاء: أما عن كيفية علاج هذا المرض فإنه: لا يستطيع أحد ما أن يقمـــع الرياء إلا بمجاهدة شـــــديدة ومكابدة لقوة الشهوات، ويكون ذلك بأمرين:

الأول: قلع عروقه، واستئصال أصوله، وهـــي لذة المحمدة، والفرار من ألم الذم، والطمع فيما في أيدي النـــاس، وهذه الثلاثة راجعـــة إلى حب المنزلة والحيـــاة.

الثاني: أن يشمر الإنسان عن ساعد الجد لدفع ما يعرض من خاطر الرياء، وخواطره ثلاثة أيضاً وهـــي: العلـــم بإطلاع الخلق، ورجاء اطلاعهم، ثم هيجان الرغبة من النفس في حمدهم، وحصول المنزلة عندهـــم، ويعقب ذلك هيجان الرغبـــة في قبول النفس له - أي الحمد والمنزلة- والركون إليه، وعقد الضمير على تحقيقه، والخاطر الأول يسمى معرفة، والثاني رغبة وشهوة.

الثالث: العزم وكمال القـــوة في دفع الخاطر الأول قبل أن يعقبه الثاني، فإذا خطر له معرفـــة اطلاع الخلـــق أو رجاء إطلاعهم دفع ذلك بأن قال: مالي وللخلق علموا أو لم يعلموا، والله عالم بحالي فأي فائدة في علم غيره؟ فإن هاجت الرغبة إلى لذة الحمد؛ فعليه أن يذكر تعرض المرائي للمقت عند الله يوم القيامة، وخيبته في أحرج أوقـــاته إلى أعماله، وعندئذ تثور عنده كراهيـــة الرياء تقابل تلك الشهوة؛ إذ يتفكر في تعرضه لمقت الله وعقابه الأليـــم، الشهـــوة تدعوه إلى القبول والكراهـــة تدعوه إلى الإباء، والنفس تطاوع لا محالة أقواهما، ويتضح من ذلك أنه لا بد في رد الرياء الذي خطر أثناء العبادة من المعرفة والكراهـــة والإبـــــاء.

وأما من الناحية العمليـــة: فإن دفع الرياء يستلزم من المرء أن يعود نفسه إخفاء العبـــادات، وإغلاق الأبـــواب دونها؛ كما تغلق الأبواب دون الفواحش حتى يقنع قلبه بعلم الله، ولا تنازعـــه نفسه بطلب علـــم غير الله بـــه، وهذا وإن كان يشق في البداية إلا أنه يهون بالصبر عليه، وبتواصل ألطاف الله تعالى، وما يمده به عباده من التأييد والتسديد .

واختصر ابن القيم العلاج في كلمتين موجزتين فقـــال- رحمه الله-: فدواء الرياء بـــ { إِيَّاكَ نَعْبُدُ} ودواء الكبر بـــ

{ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ }

أيها المؤمنون: ومن أمراض القلوب مرض الحسد الذي هو تمني زوال النعمة عن الغير، فهو خلق ذميـــم، وداء عقيم، وصفة من صفات المغضوب عليهم والضالين؛ اليهود والنصارى؛ كما قال عنهم رب العالمين: { وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّن بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّاراً حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم } (البقرة: 109). وقال جلّ ذكره: {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ هَؤُلاء أَهْدَى مِـــنَ الَّذِينَ آمَنُواْ سَبِيلاً أُوْلَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللّهُ وَمَن يَلْعَنِ اللّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ الْمُلْـــكِ فَـــإِذًا لاَّ يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللّهُ مِن فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَآ آلَ إِبْرَاهِيـــمَ الْكِتَـــابَ وَالْحِكْمَـــةَ وَآتَيْنَاهُم مُّلْكًا عَظِيمًا} (النساء: 51-54).

ولخطر الحسد وعظيم شره, أمرنا سبحانه بالاستعاذة من شر الحاسد فقال: {قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ...وَمِـــن شَـــرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ} (الفلق: 1- 5).

وعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال:" إذا افتتحت عليكم فـــارس والروم أي قوم أنتم؟" قال عبد الرحمن بن عوف: نقول كما أمرنا الله - أي نحمده ونشكره- قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:" أو غير ذلك تتنافسون، ثم تتحاسدون، ثم تتدابرون، ثم تتباغضون، أو نحـــو ذلك، ثم تنطلقون في مساكين المهاجرين، فتجعلون بعضهم على رقاب بعض" رواه مسلم.

كل العداوات قد ترجى إماتتها إلا عداوة من عاداك عن حسد

وقال بعض السلف: الحسد أول ذنب عصي الله به في السماء، يعني حسد إبليس لآدم عليه السلام، وأول ذنب عصي الله به في الأرض، يعني حسد ابن آدم لأخيـــه حتى قتله.

وقال بعضهم: الحاسد لا ينال من المجالس إلا مذمـــــة وذلاً، ولا ينال من الملائكـــة إلا لعنـــة وبغضاً، ولا ينال من الخلق إلا جـــزعاً وغماً، ولا ينال عند النزع إلا شـــدة وهولاً، ولا ينال عند الموقف إلا فضيحـــة ونكالا

الخطبة الثانية

أيهـــا المسلمون: ولكن ما أنزل الله داءً إلا وأنزل له دواء ،ومرض الحسد له علاج يمكن في أمور عـــدة ذكرها الإمام الماوردي- رحمه الله- منها: اتباع الدين في اجتنابه، والرجوع إلى الله تعالى في آدابه؛ فيقهر نفسه على مذموم خلقها، وينقلها عن لئيم طبعها، وإن كان نقل الطباع عسراً، لكن بالرياضـــة والتدريج يسهل منهـــا ما استصعـــب، ويجيب منها ما أتعب.

ومنها: العقل الذي يستقبح به من نتائج الحسد مالا يرضيه، ويستنكف من هجنة مساويه، فيذلل نفسه أنفة، ويطهرها حمية، فتذعن لرشدها، وتحبب إلى صلاحها. وهذا إنما يصح لدى النفس الأبية، والهمة العلية، وإن كان ذو الهمة يجل عن دناءة الحسد.

ومنها: أن يستدفع ضرره، ويتوقى أثره، ويعلم أن مكانته في نفسه أبلغ، ومن الحسد أبعد، فيستعمل الحزم في وقع ما كدّه وأكمده؛ ليكون أطيب نفساً، وأهنأ عيشاً.

ومنها: أن يرضى بالقضاء، ويستسلم للمقدور، ولا يرى أن يغالب قضاء الله، فيرجع مغلوباً، ولا أن يعارضه في أمره، فيرد محروماً مسلوباً.

فإن أظفرته السعادة بأحد هذه الأسباب، واقتادته المراشد إلى استعمال الصواب، سلم من سقامه، وخلص من غرامه، واستبدل بالنقص فضلاً، واعتاض من الذم حمداً، ولمن استنزل نفسه عن مذمة، وصرفها عن لائمه هو أظهر حزماً، وأقوى عزماً، ممن كفته النفس جهادها، وأعطته قيادها

اللهم! أصلح فساد قلوبنا، وأهد ضالنا، وتول أمرنا، وأصلح ذات بيننا، إنك على كل شيء قدير.

اللهم! أعز الإسلام والمسلمين، وأذل الشرك والمشركين، اللهم من أرادنا، أو أمتنا، أو دعاتنا وعلمائنا، أو مساجدنا بسوء، فرد كيده في نحره واجعل تدبيره تدميراً عليه يا رب العالمين.